نفسية الجماهير

لطفي خليل

اذا اجتمع نفر من الناس لسماع محاضرة أو مشاهدة قصة تمثيلية فانا نتبين نوعاً من الشعور قد سرى الى عقول هؤلاء الناس جميعهم وان لم يكن على درجة واحدة في كل واحد منهم . ومصدر هذا الشعور هو الممثل أو الخطيب ومنهُ ينتقل الى جمهور الحاضرين ولكن هذا الشعور ليس بالعميق الراسخ فسرعان ما يتبدَّد ويتلاشى في مشاغل الانسان الكثيرة . وكلما كان الأفراد مهيئين لمثل هذه الايحاءات كان الامتزاج في عاطفة الجمهور أقوى وأكمل وكان تأثيرها أشد وأبرز . والواقع ان الاستعداد لقبول هذه الايحاءات يختلف باختلاف الأفراد . وهو في الاطفال والنساء أظهر منهُ في الرجال وفي بعض الشعوب أقوى منهُ في غيرها . وعلى هذا نجد عقل الجماعة مسرحاً لشتى الايحاءات لا تكاد تظهر سلسلة حتى تعقبها سلسلة أخرى تحرفها في طريقها وتنتزع منها مكانها . ولا يتوقف دوام أثر هذه الايحاءات على كيفية انتشارها بأسهل الطرق ولكن على مقدار ما فيها من صلابة وحدة في العاطفة . لأن هذه الحدة في العاطفة التي تصحب الآراء عادة هي التي تعمل على تثبيتها وتغلغلها في عقول الأفراد . وبهذه الطريقة يسعى كل حزب الى كسب أنصاره بواسطة الخطب الساحرة والكلمات الخلابة التي يتوهمها هؤلاء الأنصار أنها تتفق ورغباتهم . لان الأفراد يسعون دائماً وراء امتيازات خاصة مشتركة بين الجميع ومن أجل ذلك يجتمعون لاعتقادهم أنهم يصيبون مجتمعين أكثر مما يصيبون متفرقين . وعلى هذا يقوى بينهم شعور الزمالة كلما استهدفوا لخطر فيتكاتفون جميعاً على درئهِ . فالخوف شعور وجداني لهُ فوائده العظيمة في الجمع بين الأفراد وفي تكوين الجماعات وبمقدار بقاء هذا الخوف تكون مدة اتحاد هذه الجماعات والتئام صفوفها

ولم يغفل قادة الشعوب عن هذه الظاهرة السيكولوجية في الجماهير فعملوا جهدهم على استغلالها والانتفاع بها . فاذا نجح القائد مرَّة في ادخال الخوف في قلب الجمهور من أجل خطر — وهمي أو حقيقي — لم يصعب عليهِ بعد ذلك ان يقبض على زمام هذا الجمهور وأن يوجههُ كيفما يشاء . هذا ما نراهُ في جميع الشعوب فقبل ان تندلع نيران الحرب يكون الرأي العام قد تهيأ لها عن

طريق الصحف والخطباء الذين لا يفتأون يدخلون الرعب في قلوب الناس بما يذيعونه عن زيادة تسلح احدى الدول المعادية. لذلك كان أول واجبات الزعيم الشعبي أن يبث الخوف والكراهية وعدم الثقة في نفوس الناس. لقد كشف جوستاف لوبون عن تلك العاطفة — الخوف — التي تحتل المكان الاول في أعمال الانسان فقال « ان روح الجماعة عاجزة عن أي نشاط ذهني فهي بين الاقدام والاحجام وبين هذين القطبين تتذبذب روح الجمهور فهي قد تدنو وتأبى تبعاً لشعور العطف أو الكراهية »

فاذا أدرك الزعيم رغبات شعبه وعمل على تحقيقها استطاع أن يبعث فيه روحاً قوية قد تدفعه الى التضحية. ويكفي ان يذكره بهذه الكلمات الشرف — الدين — الوطن فيثير فيه أهواءه الدفينة وميوله الغوية وسلوك الجماعة يعتمد قبل كل شيء على سلوك الأفراد الذين تألف منهم هذه الجماعة. وتصرف الفرد يخضع للجنس واللسن والبيئة ولكنه يعتمد في النهاية على السلالة أو بوجه عام على العوامل الوراثية . وما دام الأمر كذلك فقد كان المنتظر ان يختلف سلوك الجماعات الفردية النزعة Individualistic Races عن سلوك الجماعات الاجتماعية النزعة Collectivistic races وسنرى هل هذا صحيح أو غير صحيح . واذا شبهنا المجتمع الانساني بجهاز عضوي ونظرنا اليه من الوجهة البيولوجية تمكنا أن نتعرف على طبيعة الجماعة ونفسيتها وما ينتج عنها من تصرفات . وكما يختلف الافراد في التكوين الجسمي كذلك الحال في الجماعات ففي الانسان نجد كل خلية تكتسب عناصر الوراثة من كلا الوالدين ، ونشاط الخلية يتأثر دائماً بالعناصر التي ورثتها . كذلك الحال في الجماعة فان تكوين الكتلة البشرية يخضع دائماً لتصرفات الفرد وعلى ذلك نجد أن هناك شبهاً قويًّا بل تطابقاً محكماً بين خلايا الانسان الواحد وبين الناس في المجتمع

هذا من الناحية البيولوجية أما اذا نظرنا الى المجتمع من الناحية النفسية — السيكولوجية — فاننا لا نجد اختلافاً كبيراً بين الانسان والجماعة الاَّ أن الخلايا في الانسان أسرع اتصالاً بعضها ببعض من اندماج الافراد في الجماعة ففي الاول رباط مادي لا نجد مثيله في الاخير ولكن هذا الرباط يستبدل في الكتلة البشرية بما يسمى انتقال المشاعر أو الايحاء

ولست أميل هنا الى الدخول في موضوع عويص بالبحث في طبيعة انتقال هذا الشعور فقد تكون الحركات المتوافقة للخلايا ناتجة من انتقال نوع من أنواع الشعور . ومهما يكن فان في الجماعات البشرية دوافع قوية منتقلة تنتقل من فرد الى آخر كتلك التي نجدها في خلايا الجسم البشري . وكما يحدث ان الخلايا التي في الانسان تؤثر في حركات غيرها كذلك الحال في الكتل البشرية فاننا نجد صدى التأثير هو الذي ينتقل من شخص الى آخر . ويمكننا أن نستنتج من هذا ان حالة التأثير في الجماعة هي مجموع تأثير الافراد غير أن السلالة واللسن والجنس والنمو في الافراد وغيرها من مؤثرات البيئة تجعل « التفاعل » في الجماعة غيره في الافراد إذ أننا نجد في الجماعة كما في حياة الافراد العقلية دوافع شتى تتصارع وتتناضل . هذه الدوافع هي التي تتسلط

على حركات الجماعات كما تتسلط على حركات الافراد وهي دوافع غريزية خالصة

ولكن هذه الدوافع وحدها لا تكفي لتكون كتلة نفسية متماسكا تحيا حياة اجتماعية متماثلة اذ لا بد أن يكون بين الافراد شيء من التجانس العقلي . دع رجلاً يقوم بين مائة من الناس ينعى على الامة ضعفها وتفككها فسرعان ما يلتف حوله هؤلاء المائة ولكن اذا كان هؤلاء المائة من أجناس وشعوب مختلفة فانهم سرعان ما ينصرفون عن الخطيب لان كلامه لا يعنيهم في قليل أو كثير

وعلى ذلك يجب أن يكون هناك بعض التشابه في التكوين العقلي أو ما يسمى بالتجانس العقلي في الجماعة . وكلما زادت درجة التجانس في الكتلة البشرية كان التكوين النفسي للجماعة أيسر وكانت مظاهر الحياة الاجتماعية فيها أظهر وأوضح

فاذا أتيح لجماعة متجانسة شخص يثير فيها الحماسة والعمل فان شعور هذه الجماعة لا يلبث ان يتحد وقد يغمر بعقل كل واحد منهم في تلك اللحظة كل العمليات العقلية التي شاعت في ذلك الجو الجديد ويصبح من السهل اقناعهم وتوجيههم الى حيث يريد الزعيم بل قد يكون اقناعهم أسهل من اقناع الفرد لأن أعمال كل عضو في الجماعة غير أعمال الشخص الذي يواجه الموقف كفرد مستقل . فالفرد في الجماعة لاهمَّ له إلا أن يمجد قوة الجماعة ولكن الجماعة لن تحاول أن تبقي على كيانه أو أن تحافظ على حريته فهو في هذه الحالة يصبح فرداً في الجماعة يفقد فيها شعوره الشخصي وادراكه لذاته كشخصية تميزه . وعلاوة على ذلك فانهُ باندماجه في الجماعة يفقد كثيراً من المسئولية الشخصية إذ يشعر أن مشاعر غريبة قد غمرتهُ وقوى أخرى خارجية قد جرفتهُ في هذا الطريق الجديد وهو عاجز عن أن يقف أمام تيارها . لذلك يكون من اليسير جدًّا على الزعيم أن يتلاعب بتلك الجماهير التي أسلمتهُ قيادها يوجهها كيفما يشاء . فهي تسير وراءه بعاطفتها لا بعقلها تسمع كلماته فتفتح لها قلوبها وترى اشاراته فتسارع الى الاستجابة لها فتندفع في فورة العاطفة وحرارة التأثر فترتكب من أعمال الطيش والتدمير ما يثير عجب جميع الناس الذين لم تصبهم نيران الثورة ولم تستجب قلوبهم لنداء العصيان . ولكن ليس لنا أن نعجب لأمر هذه الجماهير التي طاشت أو لتلك العقول التي ضلت فان هذه الظاهرة النفسية وان بدت لنا غريبة شاذة هي نتيجة طبيعية لتلك الثورة الجامحة . فاذا وقفنا على الصفات النفسية للجمهور ما هالنا أمره . فالجمهور ساذج عاطفي الى حد كبير ، كثير الاندفاع قليل الثبات ، متطرف في كل شيء . قابل للايحاء ، مستهتر في تحكمه ، متسرع في حكمه فهو شبيه بالطفل المتروك أو الهمجي غير المكبوح وقد يكون في بعض الحالات أقرب الى الوحش الضاري منهُ الى الانسان العادي . اذا فهمنا هذه الحقائق الاولية في نظريات نفسية الجماعات مارسنا الجماهير الساذجة التي تفقد عقلها في الازمات النفسية العنيفة بالانحطاط الخلقي والنفاقي ووقفنا على تلك الحقيقة المهمة وهي ان الجمهور لا يصحبه اي شيء من الشعور الخلقي والمثلي الذي يصحب أعمال الافراد الذين يكونونها

وقد يخطىء كثير من الناس فيعزون أعمال العنف والتخريب الى الرعاع المستهترين والواقع أن جميع الافراد سواء المهذب المثقف أو السوقي الأمي يكونون في حالة عقلية واحدة في تلك الثورات النفسية الشاذة . اذ الكل يتبع نداء الغريزة ، ويندفع بتأثير الايحاء

لقد فهم شكسبير عقلية الجماهير فهماً دقيقاً فلا تخلو قصة من قصصه التمثيلية الكثيرة من الاشارة اليها والتعرض لها . وأقوى مثال على هذا ما جاء في مسرحيته الرائعة « يوليوس قيصر » من موقف الشعب الروماني بعد قتل قيصر . فقد نجح بروتس زعيم المتآمرين في اقناع الشعب بضرورة قتل قيصر لانقاذ روما حتى أن الشعب اعتبر القتلة أبطالاً جديرين بالخلود . فلما جاء « مارك انتوني » وجد نفوساً حانقة على قيصر وأتباعه فلم يشأ أن يهاجم القتلة أو أن يسيء الى قصدهم بل عمد الى استمالة الجمهور اليه بأن حدثه عن أعمال قيصر وكيف ان قيصر قد بنى لهم مجداً خالداً وشاد لهم امبراطورية عظيمة دون أن يكسب لنفسه شيئاً

فسرعان ما انقلب ذلك الجمهور الحانق الساخط على قيصر واتباعه الى جمهور ثائر على القتلة المجرمين فاندفع في فورة العاطفة يطالب بدم قيصر البريء . وهنا يورد شكسبير حادثة طريفة قد تكون حقيقة تاريخية ثابتة وقد لا تكون ولكنها على اي الحالات حادثة يمكن ان يقدم عليها جمهور في مثل تلك الثورة الجامحة والهياج العاطفي العنيف . خرج الشعب الروماني جموعاً متدفقة يبحث عن القتلة فصادف في طريقه رجلاً فسأله عن اسمه فأجاب الرجل « سنا » فلم يكد الجمهور الثائر يسمع هذا الاسم حتى انقض على الرجل يريد الفتك به لانه كان يبحث عن احد الاشخاص المتآمرين يدعى « سنا » وعبثاً حاول ذلك المسكين ان يقنع الجمهور انهُ « سنا » الشاعر لا سنا « المتآمر » . هذه الحادثة البسيطة وان لم تكن حقيقة تاريخية ترسم صورة لنفسية الشعب الثائر الذي لا يعرف الا الانتقام والتدمير سواء كان هذا التدمير يتصل بالسبب الحقيقي الذي من أجله يثور أو لا يتصل . وتعليل هذا أمر يسير فالجمهور في حالة هياجه كالفرد في ثورة غضبه فكما ان الفرد يخرج به الغضب أحياناً عن دائرة العقل فيثقف ويدمر كل ما يلقاه أمامه وقد يبكي او يضرب نفسه ان أعوزه ذلك . كذلك الجمهور يدفعه حنقه وجنونه الى قلب كل ما يراهُ أمامه وهذه ظاهرة نفسية طبيعية فهو في تلك الحالة ثائر مضطرب فيريد ان يرى كل شيء حولهُ ثائراً مضطرباً أي انهُ يريد أن يتنفس عن نفسه بخلق الجو الملائم لطبيعته الثائرة . ومن الخطل ان نأخذ مثل هذا الجمهور بالشدة والعنف فاننا ان فعلنا ذلك نزيد النار اشتعالاً . فكم من شخصيات عظيمة ذهبت ضحية الثورات الجامحة لأنها لم تفهم نفسيات الجماهير . وما اكثر الذين كان يرجى منهم مستقبل عظيم فجرفهم الجمهور في طريقه لانهم تصدوا لهُ

والواقف على تاريخ قادة الشعوب يدرك تماماً أن هؤلاء القادة لم يكونوا اذكى الناس أو اكفأهم ولكنهم كانوا أجرأهم وأكثرهم صبراً وأعرفهم بنفسية شعوبهم